الرسالة الشافية

للأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني

(٠٠٠ - ٤٧١ هـ)

[عن نسخة حسين جلي المصورة بمعهد مخطوطات الجامعة العربية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .
اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ. هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، وما أخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل ؛ وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه . كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام وتقريره في النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به ، ويكون زمناً عليه يمسكه على المتفهم له والطالب علمه .

وهذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحداوا إلى معارضة القرآن ، وإذعانهم وعلمهم أن الذى سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة ، قد تحررت فيها الإيضاح والتبيين وخذوت الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه ، وفي طريقهم أذهب ، وإلى الأفهام جملة أقرب ؛ وأسأل الله التوفيق للصواب والعون عليه ، والإرشاد إلى كل ما يزلف لديه ، إنه على ما يشاء قدير .

معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضاً ، وأن علم ذلك علم ينخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ، ومن عداهم تبع لهم وقاصر

فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين ؛ من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي نزل فيه الوحي ، وكان فيه التحدى أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له . كيف ونحن نراهم يجهلون^(١) عنهم أنفسهم . ويبرءون من دعوى المداناة معهم ، فضلاً عن الزيادة عليهم . هذا خالد بن صفوان يقول ، كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟ . ونرى الجاحظ يدعى للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة ، وينظر في ذلك الشعوبية ، ويجهلهم ويسفه أحلامهم في إنكارهم ذلك ، ويقضى عليهم بالشقوة وبالتهالك في العصبية ، ويطنب ، ثم يقول : « ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة ، من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء القليل »^(٢) . انتهى كلامه . والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى ، أو أن ينكره إلا جاهل أو معاند . وإذا ثبت أنهم الأصل والقدوة ، فإن علمهم العلم ؛ فبنا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحذوا إليه ، ومئنت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ومن التقريع بالعجز عنه ، وبت الحكم بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه ، وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ،

(١) هذه اللفظة في الأصل غير واضحة ، وهي بين يجعلون ويجهلون وقد رجحنا الأخيرة .

(٢) ترد هذه الفقرة في البيان والتبيين ط هارون ٢٩/٣ بخلاف يسير ، وفي النصين غموض في الكلمة الواردة بعد « وما لا يزدوج » وقد جاءت في النسخة التي اعتمد عليها الناشر هكذا : « فعنا العلم أن ذلك » - وقد أشار في هامشة إلى رواية تتفق وما نقله عبد القاهر هنا .

ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلا على وجه من الوجوه ، أما الأحوال فدلّت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف ، وطبائعهم التي لا تتبدل أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يباي^(١) بنفسه ، ويدل بشعر يقوله أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل ما لديه من المنّة . حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل وبنوع من التمثل ، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط . ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض . وإن كان المدعى ذلك بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدهى له إلى ميلراته وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو أنه منه أفضل ؛ فإن انضاف إلى ذلك أن يدعو الرجل إلى مما تنته ويحركه لمقاولته ، فذلك الذي يسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلع أقصى الحد في مناقضته ، وقد عرفت قصة جرير والفرزدق ، وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المقاولة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة ، كيف جد كل واحد منهما في مغالبة الآخر ، وكيف جعل ذلك همه وكده وقصر عليه دهره ، هذا وليس به ولا يخشى إلا أن يُقضى لصاحبه بأنّه أشعر منه ، وأن خاطره أحدّ وقوافيه أشرد ، لا ينازعه ملكا ولا يفتات عليه بغلبته له حقاً ، ولا يلزمه به أتاوة ، ولا يضرب عليه ضريبة .

(١) أي يفخر ويباهي .

وإذا كان هذا واجباً بين نفسين لا يروم أحدهما من مباحاة صاحبه إلا ما يجرى على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوى الأنفس الأبوية والهمم العلية ، والأنفة والحمية ، من يدعى النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به صلى الله عليه وسلم ثم يقول : وحجتى أن الله تعالى قد أنزل على كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرُونَ على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهلتم جهلكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه في دعواه ، مع إمكان ذلك ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله أو قريب منه ؟ هذا وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته ومن الذى ادعاه حداً تركوا معه أحلامهم الراجحة ، وخرجوا له عن طاعة عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، ولقوه بكل أذى ومكروه ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكُلُّ من تبعه بضروب المكاييدة ، وأرادوهم بأنواع الشر . وهل سمع قط . بذى عقل ومسكة استطاع أن يخرس خصماً له قد اشتط . في دعواه بكلمة يجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يسفه فيها وينسب معها إلى ضيق الذرع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة وعز عليه المخلص ، أم هل عرف في مجرى العادات وفي دواعى النفوس ومبنى الطبائع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصمه ، فلا يذكرها ولا يفصح بها ولا يجلى عن وجهها ولا يريه الغلط . فيما قال ، والكذب فيما ادعى ، ولا يدعى أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ، بل يجعل

أول جوابه له ومعارضته إياه التمسرح إليه والسفه عليه ، والإقدام على قطع رحمه ، وعلى الإفراط في أذاه؟ أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهم دين ونحلة فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبى ذرارهم وأولادهم ، وعدته التي يجد بها السبيل إلى تالف من يتألفه ، ودعاء من يدعوه ، دعوى له إذا هي أبطلت بطل أمره كله وانتقض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يشتغل بإبطالها ، مع إمكان ذلك ومع أنه ليس بمتعذر. ولا ممتنع؟. وهل مثلُ هذا إلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى إن هي سمعت كان منها على خطر في ماله ونفسه ، فأحضر بينة على دعواه تلك ، وعند هذا المدعى عليه ما يبطل تلك البينة أو يعارضها ، وما يحول على الجملة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيدع إظهار ذلك والاحتجاج به ، ويضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الإخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ، ويقتل فيها أولاده وأعزته ، وينهك عشيرته ويغنم أمواله ، ولا يقع له في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضى الذى قضى لخصمه ، ولا إلى^(١) القوم الذين سمحوا منه وتصوروه بصورة المحق فيقول : لقد كانت عندي - حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده ، قد تركتها تهاوناً بأمره ، أو أنسيتها ، أو منع مانع دون عرضها ، وما هي هذه قد جئتم بها فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غررتم ؟ ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو كان من المجانين لما صح أن يفعل ذلك ، فكيف بقوم هم أرجح أهل زمانهم عقولا ، وأكملهم معرفة

(١) في الأصل كلمتان غامضتان أثبتناه أقربهما إلى الرسم والمعنى .

وأجزلهم رأياً ، وأثقبهم بصيرة ؟ فهذه دلالة الأحوال .

وأما دلالة الأَقْوَال فكثيرة ، منها حديث ابن المغيرة روى أنه جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً بالموسم ، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا مجنون يخنق ؛ فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عادلاً فيكذبونكم ! قالوا : نقول هو شاعر . قال : هم العرب ، وقد رووا الشعر ، وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر ، فيكذبونكم ! . قالوا نقول : هو كاهن قال ، إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة ، فيكذبونكم ! . ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا : صبأ الوليد - يعنون أسلم - ولئن صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أنا أكفيكموه . قال فأتاه محزوناً فقال : مالك يا ابن أخ ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك ، نستعين بها على كبرك وحاجتك . قال : أولست أكثر قريش مالا ؟ ! . قال : بلى ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه ، قال : والله ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول ؟ ! ، ثم أتى قريشاً فقال ، أتزعمون أنني صبأت ولعمري ما صبأت ، إنكم قلمتم : محمد مجنون ، وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل رأيتموه يخنق قط . ؟ ، فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط . ؟ ، وقلمتم : شاعر ؟ وأنتم شعراء فهل أحد منكم يقول ما يقول ؟ ، وقلمتم : كاهن ، فهل تحدثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقول إن شاء الله ! ، قالوا : فكيف تقول يا أبا المغيرة ؟ قال : أقول هو ساحر ؛ فقالوا : وأي شيء السحر ؟ قال : شيء يكون ببابل ، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه [أليس مما تعلمون] ، أن محمداً فرق بين

(١) في الأصل عبارة غامضة ، وما أثبتنا يرتضيه السياق .

فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأخيه ، وبين فلان ومواليه ، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتئهم؟ قالوا : بلى . فاجتمع رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول . وانصرف ؛ فمر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منطلقاً إلى رجله ، وهم جلوس في المسجد فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم إلا سحراً وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره ، وعبس في وجوههم وبسر ، ثم أدبر إلى أهله مكذباً ، واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۗ ﴾ (١) الآية . ومنه ما رواه محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً حليماً - قال يوماً : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكثرون ، قالوا : بلى يا أبا الوليد ! فقام إليه - وهو صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده - فقال : يا ابن أخي ! إنك منا حيث علمت من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت بين جماعتهم وسفهت أعلامهم ، وعبت آلهتهم ، وكفرت من مضي من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل . قال : إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد

شرفاً سودناك حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى بك رثياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو لعل هذا شعر جاش به صدرك ، فإنكم لعمري بنى عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا نقدر عليه ؛ حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوَقَد فرغت ؟ قال : نعم ، قال ، فاسمع منى ، قال : قل . قال : ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ، حم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ یعلمون بشيراً ، ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا یسمعون ﴾^(١) ثم مضى فيها یقرؤها ، فلما سمعها عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال له : قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك ! . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس قالوا ما وراءك ، قال : ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط . وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله لیکونن لقوله الذى سمعت نبأ ؛ فإن تُصِبهُ العرب فقد كُفِيتُموه بغيركم^(٢) ، وإن یظهره على العرب به فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرک بلسانه ! قال : هذا رأی فاصنعوا ما بدالکم . ومنه ما جاء فى حديث أبى ذر فى سبب إسلامه : روى أنه قال : قال لى أخى أنیس : إن لى حاجة إلى مكة ، فانطلق فراث ، فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلاً [يقول] إن الله تعالى أرسله .

(١) (فصلت ٤١/١ - ٢) .

(٢) فى هذه العبارة اضطراب ولعلها « فإن تُصِبهُ غير العرب . . . »

فقلت : فما يقول الناس ؟ . قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبو ذر : وكان أنيس أحد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على أقرء^(١) الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . ومن ذلك ما روى أن الوليد بن عقبة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ . فقرأ عليه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) فقال : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمُعْرِقٌ^(٣) ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقرئ هذا بشراً . واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض حين نخلوا بأنفسهم ، فتفاوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض ؛ وإن كان منه من كلام المؤمنين ، أو ممن قاله ثم آمن ، فإنه لا يصح الاحتجاج به في حكم الجدل من حيث يصير كأنك تحتج على الخصم برأى تراه أنت ، وبقول أنت تقوله ، وذلك أنه إنما يمتنع أن يدل إذا صدر القول بمصدر الدعوى والشئ يدفعه الخصم وينكره ، فأما ما كان مخرجه مخرج التنبيه على أمر يعرفه ذوو الخبرة ، وأطلقه قائله إطلاق الواثق بأنه معلوم للجميع ، وأنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يحوج إلى تسليمه والاعتراف به شاء أم أبي فهو دليل بكل حال ؛ ومن قول كل قائل ، وحجة من غير مشنوية ، ومن غير أن ينظرا إلى قائله أموافق أم مخالف ، ذلك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة ، بل في مصدرهما وفي أن أخرجا مخرج

(١) الأقرء القوافي ، واحده قرء .

(٢) [النحل ٩٠/١٦] .

(٣) في رواية أخرى لمعْدِقٌ .

لإخبار عن أمر هو كالشيء البادى للعيون ، لا يُعمل أحد بصره إلا رآه ،
 إذا رأينا الأحوال والأقوال فمنهم قد شهدت كالذى بان باستسلامهم للعجز
 علمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية ، الذى إذا قيس إلى
 يستطيعونه ويقدرون عليه فى ضروب النظم وأنواع التصرف فاته الفوت الذى
 ينال ، وارتقى إلى حيث لا تطمع إليه الآمال ؛ فقد وجب القطع بأنه
 معجز ؛ ذلك لأنه ليس إلا أحد أمرين^(١) فيما أن يكونوا قد علموا المزية التى
 ذكرنا أنهم علموها على الصحة ، وإما أن يكونوا قد توهموها فى نظم القرآن
 وليست هى فيه لغلط دخل عليهم . ودعوى الثانى من الأمرين سخف : فإن
 ذلك لو ظن بالواحد منهم لبعد ، ذلك لأنه لا يتصور أن يتوهم العاقل فى
 نظم كلامٍ - جلُّ مناه ومنى أصحابه أن يستطيع معارضته وأن يقدر على
 إسكات خصمه المباهى به - أنه قد باغ فى المزية هذا المبلغ العظيم غلطاً
 وسهواً ، فكيف ، بأن يشتمل هذا الغلط . كلهم ويدخل على كافتهم ؟ !
 وأى عقل يرضى من صاحبه بأن يتوهم عليهم مثل هذا من الغلط ، وهم من
 إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أن يذكر ؛ ويسمع أحدهم البيت قد
 استرفده الشاعر فأدخله فى أثناء شعره ، فيعرف موضعه وينبه عليه كما
 قال الفرزدق لذى الرمة^(٢) : أهذا شعرك ؟ ، هذا شعرك لأكه أشد لحيين
 منك . إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا فى جنبها ، وإذا لم يصح الغلط
 عليهم ، ولم يجوز أن يدعى أنه كان فى زمانهم من كان بالأمر أعلم ، وبالذى
 وقع التحدى إليه أقوم ، فقد زالت الشبهة فى كونه معجزاً له .

وإن قالوا : فإن هاهنا أمراً آخر ، وهو ما علمنا من تقديمهم شعراء

(١) فى الأصل : (ليس أحد الأمرين) .

(٢) راجع ما سبق عن هذه القصة فى رسالة الخطايب .

الجاهلية على أنفسهم ، وإقرارهم لهم بالفضل وإجماعهم في امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى أنهم أشعر العرب ، وإذا كان ذلك كذلك فمن أين لنا أن نعلم أنهم لم يكونوا بحيث لو تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوها !

قيل لهم : هذا الفصل على ما فيه لا يقدر في موضع الحجة ، وذلك أنهم كانوا — كما لا يخفى — يروون أشعار الجاهليين وخطبهم ، ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تشكّل جهات الفضل عليه ؛ فلو كانوا يرون فيما رويوا مزية على القرآن ، أو رأوه قريباً منه ، أو بحيث يجوز أن يعارض بمثله ، أو يقع لهم إذا قاسوا أو وازنوا أن هذا الذي تحدوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله ، لكانوا يدعون ذلك ويذكرونه ، ولو ذكروه لذكر عنهم ، ومحال إذا رجعنا إلى أنفسنا واستشفعنا حال الناس فيما جبلوا عليه ، أن يكونوا قد عرفوا لما تحدوا إليه وقرعوا بالعجز عنه شبهاً ونظماً ، ثم يتلى عليهم : ﴿ قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) فلا يزيدون في جوابه على الصمت ، ولا يقولون : لقد رويناه لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصر [عما] أتيت به . فمن أين استجزت أن تدعى هذه الدعوى ؟ ، فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأوا أن يقولوه ، ولو على سبيل الدفع والتلبيس والشغب بالباطل ، بل كانوا بين أمرين : إما أن يخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور ، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض ، وكان الحال حال تصادق ، وإما أن

يتعلقوا بما لا يتعلق به إلا من أعوزته الحيلة ، ومن (فعل) (١) بالحجة من نسبته إلى السحر تارة ، وإلى أنه مأخوذ من فلان وفلان آخر ، يسمون أقواماً مجهولين لا يُعرفون بعلم ، ولا يُظن بهم أن عندهم علماً ليس عند غيرهم ، ثبت أنهم قد كانوا علموا أن صورة أولئك الأوائل صورتهم ، وأن التقدير فيهم أنهم كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم - ثم تحدوا إلى معارضته - لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالهم ، وإذا كان هذا هكذا فقد انتفى الشك ، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس ، ويطمئن عنده القلب أنه معجز ناقض للعادة ، وأنه في معنى قلب العصا حية ، وإحياء الموتى في ظهور الحجة به على الخلق كافة ، وبأن قد سَعِدَ المؤمنون وخسر المبطلون . والحمد لله رب العالمين على أن هدانا لدينه وأنار قلوبنا ببرهانه ودليله ، وإياه جل وعز نسأل التثبيت على ما هدى له ، وإتمام النعمة بإدامة ما خوله ، بفضله ومنه .

فصل

واعلم أن هاهنا باباً من التلبيس أنت تجده يدور في أنفس قوم من الأشقياء ، وتراهم يومئذ إليه ، وهمسون به ويستهوون الغر الغبي بذكره ، وهو قولهم : قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطمع أحد في مداناته ، وحتى ليقع (٢) الإجماع فيه أنه الفرد

(١) هكذا في الأصل وقد وضعنا الكلمة بين قوسين ولعلها أفحيم .

(٢) في الأصل : « حتى لا يقع » ، والننى هنا غير مستقيم مع السياق .

الذى لا ينازع . ثم يذكرون امرأ القيس والشعراء الذين قدموا على من كان معهم فى أعصارهم ، وربما ذكروا الجاحظ . وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان فى عصره ، ولهم فى هذا الباب خبط وتخليط . لا إلى غاية ، وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم ، وإنما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل ؛ وذلك أن الشرط فى المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر ، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة ، وحتى لاتحدث نفسٌ صاحبها بأن يتحدى ، ولا يجول فى خلد أن الإتيان بمثله يمكن ، وحتى يكون بأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه فى بعضه مثل ذلك فى كله .

وليت شعرى من هذا الذى سلم لهم أنه كان فى وقت من الأوقات من بلغ أمره فى المزية وفى العلو على أهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ! ، إن قيل امرؤ القيس ، فقد كان فى وقته من يباريه ويماتنه ، بل لا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه : فقد عرفنا حديث علقمة الفحل ، وأنه لما قال امرؤ القيس - وقد تناشدا - : أينما أشعر ، قال : أنا . غير مكترث ولا مبال ؛ حتى قال امرؤ القيس ، فقل وانعت فرسك وناقتك ، وأقول وانعت فرسى وناقى ، فقال علقمة : إني فاعل ، والحكم بينى وبينك المرأة من ورائك - يعنى أم جندب امرأة امرئ القيس . فقال امرؤ القيس :

خِليِّ مرَّأى بى على أمِّ جُنْدَبِ نَقَضَّ لُبَانَاتِ الفُوَادِ المَعْدَبِ

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهبٍ ولم يكُ حقاً كلُّ هذا التجنبِ
ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

وتحاكما إلى المرأة، ففضلت علقمة (١).

وجرى بين امرئ القيس والحرث، اليشكري في تميمه أنصاف الأبيات التي أولها (٢):

أحار أريك برقاً هباً وهناً كنارٍ مجوسٍ تستعرُ استعاراً

ما هو مشهور: حتى قال امرؤ القيس: لا أمانك (٣) بعد هذا.

ثم وجدنا الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس فيه وفي غيره أي أشعر؟ ، وعلى أي لم يستقر الأمر في تقديمه قراراً يرفع الشك. روى أن أمير المؤمنين علياً - رضوان الله عليه - كان يفطر الناس في شهر رمضان ، فإذا فرغ من العشاء تكلم فأقل وأوجز فأبلغ ، قال : فاختصم الناس ليلة في أشعر الناس ، حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي : قل يا أبا الأسود - وكان يتعصب لأبي دؤاد - فقال : أشعرهم الذي يقول :

ولقد أغتدي يدافع ركني أحوذي ذو ميعة إضريح (٤)
مخلط مزبد مكر مفر منفح مطرح سبوح خروج
سلهب شرب كأن رماحاً حملته وفي السرة دموج (٥)

فأقبل أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - على الناس فقال : كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا

(١ ، ٢) سبق أن وردت هاتان القصتان في رسالة الخطابي ، هذا وفي الأصل هامش - لعله من

الناسخ - بين وجه تفضيل علقمة على امرئ القيس .

(٣) هنا في الأصل هامش يفسر الماتة بأن يقول أحد الشعراء بيتاً ويقول الآخر بيتاً كأنهما

يمتدان إلى غاية .

(٤) حاذ ساق ، وأحوذي حسن السوق ، والإضريح : الخزالأحمر .

(٥) سلهب فرس طويل ، والسرة الظهر ، ودموج متداخل بعضه في بعض .

أيهم أسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه ، وإن يكن أحدهم أفضل فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة ؛ امرؤ القيس بن حجر ، كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة^(١) .

وعن ابن عباس أنه سأل الحطيئة : من أشعر الناس من الماضين والباقيين ؟

فقال : إذن من الماضين فهو الذي يتمول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضيه يفره ومن لا يتق الشتم يثتم
وما الذي يقول :

ولست بمُستَبقٍ أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب

بدون ذلك ، ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولا - يعني نفسه -
والله يا ابن عباس لولا الجشع والطمع لكنت أشعر الماضين ، فأما الباقيون
فلا أشك أني أشعرهم^(٢) .

وقال : كان الأوائل لا يفضلون على زهير أحداً في الشعر ويقولون : قد

ظلمه حقه من جعله كالنابغة . قالوا : وعامة أهل الحجاز على ذلك . وعن ابن
عباس أنه قال : سامرت عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - ذات ليلة
فقال : أنشدني لشاعر الشعراء . فقلت : ومن شاعر الشعراء ؟ قال :
زهير . قلت يا أمير المؤمنين ، ولِمَ كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه لا يتبع
وحشى الكلام في شعره ، ولا يعاظم بين القول .

وروى عن أبي عبيدة أنه قال : أشعر الناس ثلاثة ، امرؤ القيس بن

حجر ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، ثم اختلفوا فيهم : فزورت

(١) في هذا القول المنسوب إلى علي طرافة فهو يشير إلى نواح لا بد من الاتفاق عليها لتتحقق

المفاضلة ، وهو ينبه إلى فكرة الشعر للشعر لا عن رغبة أو رهبة ، وهي فكرة غير مطروقة كثيراً في
النقد العربي القديم ، وراجع تفضيل علي لامرئ القيس في العمدة ط ١٩٢٢ / ١ / ٥٩ .

(٢) راجع الخبر في العمدة ١ / ٦١ . ويزيد أن ابن عباس قال له : كذلك أنت يا أبا ملكية !

اليمانية تقدماً لصاحبهم أخباراً رفعوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وروى عن يحيى بن سليمان الكاتب أنه قال : بعثني المنصور إلى حماد
الراوية أسأله عن أشعر الناس فأتيته وقلت : إن أمير المؤمنين يسألك عن
أشعر الناس . فقال : ذلك الأعشى صناجها .

فقد علمنا أن امرأ القيس كان أشعرهم عندهم ، وأن تفضيلهم غيره عليه
إنما كان على سبيل المبالغة ، وعلى جهة الاستحسان للشيء يتمثل به في
الوقت ، ويقع في النفس ، وما أشبه ذلك من الأسباب التي يعطى بها
الشاعر أكثر مما يستحق . أليس فيه أنه مما لا يبعد في القياس وأنه مما
يتسع له الاحتمال ، وأنه ليس بالقول الذي يعاب والحكم الذي يزرى
بصاحبه ، وأن فضله عليهم لم يكن بالفضل الذي يمنع أن يكونوا أكفأ
له ونظراء يسوغ للواحد منهم - ويسوغ هو لنفسه - دعوى مساواته والتصدي
لمباراته ! هذا وفي حاجة المنصور إلى أن يسأل عن أشعر الشعراء - وقد مضى
الدهر بعد الدهر - دليل أن لم يكن الذي روى من تفضيله مجمعاً عليه
من أصله وُقِيَ أول ما قيل ، وأنه كان كالرأى يراه قوم وينكره آخرون ، وأن
الصورة كانت كالصورة مع جرير والفرزدق ، وأبي تمام والبحتري . ذلك
لأنه لو كان القول بأنه أشعر الناس قولاً صدر مصدر الإجماع في أوله ،
وحكماً أطبق عليه الكافة حين حكم به حتى لم يوجد مخالف ، ثم استمر
كذلك إلى زمان المنصور ، لكان يكون محالاً أن يخفى عليه حتى يحتاج فيه
إلى سؤال حماد ، وكان يكون كذلك بعيداً من حماد أن يبعث إليه مثل
المنصور ، في هيئته وسلطانه ودقة نظره وشدة مؤاخذته ، يسأله فيجازف له
في الجواب ويقول قولاً لم يقله أحد ، ثم يطلقه إطلاق الشيء الموثوق
بصحته المتقدم في شهرته . فتدبر ذلك .

ويزيد الأمر بياناً أنا رأيناهم حين طبّقوا الشعراء جعلوا امرأ القيس وزهيراً
والنابغة والأعشى في طبقة^(١) ، فأعلموا بذلك أنهم أكفاء ونظراء ، وأن فضلاً
إن كان لواحد منهم فليس بالذى يوثس الباقين من معاناته ، ومن أن يستطيعوا
التعلق به والجرى في ميدانه ، ويمنعهم أن يدعوا لأنفسهم ، أو يدعى لهم أنهم
ساووه في كثير مما قالوه أو دنوا منه ، وأنهم جروا إلى غايته أو كادوا ، وإذا
كان هذا صورة الأمر كان من العمى التعلق به ، ومن الخسار الوقوع في
الشبهة بسببه .

وطريقة أخرى في ذلك ، وتقرير له على ترتيب آخر ، وهو أن الفضل
يجب ، والتقديم إما لمغنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه ، أو استعارة
بعيدة يفتن لها ، أو لطريقة في النظم يخترعها . ومعلوم أن المعول في دليل
الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد
من قبل فقط ، بل في ذلك مضموماً إلى أن يبين ذلك النظم من سائر
ما عرف ويعرف من ضروب النظم ، وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم
يستطيعونه ، البينونة التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه ،
ولا يهتدى ليكنه أمره ، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على
مثله ، وما يجرى مجرى المثل له ، على صورة واحدة ، وحتى كأن قلوبهم في
ذلك قد أفرغت في قاب واحد . وإذا كان الأمر كذلك لم يصح لهم تعلق
بشأن امرئ القيس حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم بان من كل نظم عرف لمن
قبله ولن كان معه في زمانه البينونة التي ذكرنا أمرها . وهم إذا فعلوا ذلك
ورطوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجهالة ، من حيث إنه يفضي بهم
إلى أن يدعوا على من كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من الشعراء والبلغاء

(١) هكذا فعل ابن سلام الجعفي (ت ٢٣١ هـ) في طبقاته .

قاطبة الجهل بمقادير البلاغة ، والنقصان في علمها ، ولأنفسهم الزيادة عليهم وأن يكونوا قد استدركوا في نظم امرئ القيس مزية لم تعلمها قريش والعرب قاطبة ؛ ذلك لما مضى آنفاً من أن محالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نظم يعرفون من حاله أنه مساو في الشرف نظم القرآن ، ثم لا يذكرونه ولا يحتجون به على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يخبرهم أن الذي أتى به خارج عن طوق البشر ويتجاوز قواهم . هذا ومن يسلم بأن امرأ القيس زاد في البلاغة وشرف النظم على نظم من كان قبله ما إذا اعتبر كان في مزية قدر القرآن على نظم من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم؟! أم من أين لهم هذه الدعوى؟! أليس علموه هم في شعره ، بان لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأي دؤاد والأفود الأودي وغيرهما؟! أم لخبر أتاهم فليرونا مكانه ، وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل قد أتى الخبر بما يُجهلهم في هذه الدعوى ويكذبهم ، وهو الذي تقدم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دؤاد بحضرة أمير المؤمنين على رضوان الله عليه ، وبعد أن قال له :

قل يا أبا الأسود . أفيكون أن يكونوا قد عرفوا لامرئ القيس المزية التي ذكروها ، وكان فضله على من تقدمه الفضل الذي قالوه ، ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود : قل ، بحضرة العرب وبعقب أن تشاجروا في أشعر الناس ، فيؤخره ويقدم أبا دؤاد ، ثم لا يسمع نكيراً كالذي يجب فيمن قال الشيء الظاهر بطلانه ، وذهب مذهباً لا مساغ له ! وليست تذكر أمثال هذه الزيادة ، ويتكلف الجواب عنها أنها تأخذ موضعاً من قلب ذي لب ، ولكن الاحتياط . بذكر ما يتوهم أن يستروح إليه الغوى ويغالط به الجاهل .

وإذا كانت الشبهة في أصل الدين ، كانت كالداء الذي يخشى منه

على الروح ، ويخاف منه على النفس ، فلا يستقل قليله ولا يتهاون باليسير منه ، ولا يتوهم مكان حركة له إلا استقصى النظر فيه وأعيد الكى على نواحيه ، وكالحيوان ذى السم يعاد الحجر على رأسه ، مادام يرى به حس وإن قل .

والله ولى العصمة ، والمسئول أن يجعل كل ما نعيد ونبدى فيه لوجهه بفضله ومنه .

فاعلم أنهم إذا ذكروا - فى تعلقهم بالتوابع ، ومحاولتهم أن يمنعوا من الاستدلال مع تسليم عجز العرب عن معارضة القرآن - من تراخى زمانه عن زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، كالجاحظ. وأشباهه كانوا فى ذلك أجهل ، وكان النقض عليهم أسهل ، وذلك أن الشرط. فى نقض العادة أن يعم الأزمان كلها ؛ وأن يظهر على مدعى النبوة ما لم يستطعه مملوك قط .

وأما تقدّم واحد من أهل العصر سائرهم ، ففى معنى تقدم واحد من أهل مصر من الأمصار غيره ممن يضمه وإياه ذلك المصر ، لا فضل فى ذلك بين الأمصار والأعصار إذا حققت النظر ، إذ ليس بأكثر من أن واحداً زاد على جماعة معدودين فى نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم أو أكتبهم أو أشعرهم ، أو أحذقهم فى صنعة ، وأبهرهم فى عمل من الأعمال ، وليس ذلك من الإعجاز فى شىء ، إنما المعجز ما علم أنه فوق قوى البشر وقدرهم ، إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر ، أو فوق علومهم إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم ، وإذا كنا نعلم أن استمداد الجاحظ. وأشباه الجاحظ. من كلام العرب والبلغاء الذين تقدموا فى الأزمنة وأنهم فجزوا لهم ينابيع القول فاستقوا ، ومثلوا لهم مثلاً فى البلاغة فاحتدوا ،

إِذْنٌ لَمْ يَبْلُغُوا شَأْوَ مَا بَلَّغُوا ، وَلَمْ يَدْرَ لَهُمْ مِنْ ضَرْوعِ الْقَوْلِ مَا دَرَّ ؛ وَلَوْ أَنَّ طَبَاعًا لَمْ تَشْرَبْ مِنْ مَائِهِمْ ، وَلَمْ تُغْذَ بِجَنَاهِمِ ، وَلَمْ يَكُنْ حَالُهُمْ فِي الْاِكْتِسَابِ مِنْهُمْ ، وَالِاسْتِمْدَادِ مِنْ ثَمَارِ قَرَائِحِهِمْ ، وَتَشْمِ الْذِي فَاحٍ مِنْ رَوَائِحِهِمْ ، حَالِ النَّحْلِ ، الَّتِي تَغْتَذِي بِأَرْيَجِ الْأَنْوَارِ وَطَيْبِ الْأَزْهَارِ ، وَتَمَلُّ أَجْوَاهِهَا مِنْ تِلْكَ اللَّطَائِفِ ، ثُمَّ تَمَجُّهَا أَرِيًّا وَتَقْدِفُهَا مَذِيًّا ، إِذْنٌ لَكَانَ الْجَاحِظُ وَغَيْرُ الْجَاحِظِ فِي عِدَادِ عَامَةِ زَمَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْا ، وَلَمْ يَحْفَظُوا ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا كَلَامَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ ظَهَرَ الشَّعْرُ وَكَانَتْ الْخُطَابَةُ إِلَى وَقْتِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوا إِلَّا مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ آبَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ وَمَسَاكِنُهُمْ فِي الدَّارِ وَالْمَحَلَّةِ ، أَوْ كَانُوا لَا يَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ إِنْ زَادُوا إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَعْلُومٍ . فَمَنْ أَعْظَمَ الْجَهْلُ وَأَشَدَّ الْغِبَارَةُ أَنْ يُجْعَلَ تَقْدِمَ أَحَدِهِمْ لِأَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ بَابِ نَقْضِ الْعَادَةِ ، وَأَنْ يُعَدَّ مَعَدَّ الْمُعْجَزِ .

فَمِثْلُ هَذِهِ الطَّبَقَةِ إِذْنٌ مَعَ الصِّدْرِ الْأَوَّلِ ، وَقِيَاسِ هَوْلَاءِ الْخَلْفِ مَعَ أَوْلِيَاكِ السَّلَفِ ، مَا جَرَى بَيْنَ ابْنِ مِيَادَةَ وَعِقَالٍ : قَالَ ابْنُ مِيَادَةَ (١) :

فَجَرْنَا يَنْسَابِيْعَ الْكَلَامِ وَبَحْرَهُ فَاصْبَحَ فِيهِ ذُو الرُّوَايَةِ يَسْبَحُ
وَمَا الشُّعْرُ إِلَّا شِعْرُ قَيْسٍ وَخَنْدِيفٍ وَقَوْلُ سَوَاهِمُ كَلْفَةُ وَتَمْلِحُ

فَقَالَ عِقَالٌ يَجِيبُهُ :

أَلَا أَبْلَغَ الرَّمَّاحِ نَقْضَ مَقَالَةٍ بِهَا خَطِلَ الرَّمَّاحُ أَوْ كَادَ يَمْزِحُ
لَقَدْ خَرَقَ الْحَىُّ الْيَمَانُونَ قِبَاهَهُمْ بِحُورِ الْكَلَامِ تُسْتَقَى وَهِيَ طُفْحُ
وَقَدْ عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُمْ فَتَعَلَّمُوا وَهُمْ أَعْرَبُوا هَذَا الْكَلَامَ وَأَوْضَحُوا

(١) ٣٩٣ دلائل الإعجاز ١٣٣١ هـ والبيت الثاني لابن ميادة يروى : « وشعر سواهم » .
وابن ميادة هذا هو الرماح بن أبرد وجدته لأبيه سلمى بنت كعب بن زهير بن أبي سلمى وهو من شعراء الدولتين (معجم الشعراء للمرزباني ١٣٥٤ هـ ص ١٢٤ ، ٣١٩) .

فلسابقين الفضل لا تنكرونه ، وليس لمخلوق عليهم تبجح (١)

وفي الذى قدمت فى أول الجزء مفتتح هذه الرسالة من قول خالد بن صفوان : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، وما أتبعته من قول الجاحظ. فى شأن العرب ، وفى أن الاقتداء بهم والأخذ منهم والتسليم لهم ، وأنه لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم فى البيان أن يضاهيهم ، ويقول مثل الذى قالوه فى جودة السبك والنحت ، وكثرة الماء والرونق - إلا فى اليسير - غنى لعاقل وكفاية ، اللهم إلا أن يتجاهل متجاهل فيدعى فى الجاحظ. وأمثاله فضلاً لم يدعوه لأنفسهم ، أو يزعم أنهم ضاموا أنفسهم تعصباً للعرب فتشاهدوا لها بأكثر مما عرفوا وتواصفوها بمزية لم يعلموها ، فيفتح بذلك باباً من الركافة والسخف لا يجاب عن مثله ، ولا يشتغل بالإصغاء إليه ، فضلاً عن الكلام عليه . واعلم أنه إن خيل إلى قوم من جهال الملاحدة أنه كان فى المتأخرين من البلغاء كالجاحظ. وأشبهه الجاحظ. من استطاع معارضة القرآن فترك خوفاً ، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه ، لم يتصور تخيلهم ذلك حتى يقتحموا هذه الجهالة التى ذكرتها ، أعنى أن يزعموا أنهم كانوا عند أنفسهم أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم ، وأن خطيبهم كان أخطب من قس وسحبان ، وشاعرهم أشعر من امرئ القيس ومن كل شاعر كان فى العرب ، إلا أنهم صانعوا الناس فمعنوا أنفسهم الفضيلة ونحلوها العرب . وذاك أن محالا أن يعتقدوا فيهم - أعنى فى العرب - ما اعتقده الناس ، وفى أنفسهم ما أفصحوا به من القصور عن مداناتهم ، وشدة الانحطاط. عنهم ، ثم أن يستطيعوا ما لم يستطعه العرب ويكملوا ما لم يكملوا له .

(١) فى الدلائل :

فلسابقين الفضل لا تجحدونه وليس لمسبق عليهم تبجح

ومن هذا الذى يشك فى بطلان دعوى من بلغ بالمصلى غاية قد انقطع السابق [عنها] ، وزعم فى الناقص الحذق أنه استقل بشيء عيى به المشهود له بالحذق والتقدم ، هذا ما لا يدور فى خلد ، ولا تنعقد له صورة فى وهم ، فاعرف ذلك .

فصل

فى جزء آخر من السؤال ، وهو أن يقولوا : إنا قد علمنا من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطيعه اللفظ فى صنف من المعانى ، يمتنع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ فى صنف آخر . فقد يكون الرجل - كما لا يخفى - فى المديح أشعر منه فى المراثى ، وفى الغزل واللهو والصيد أنفذ منه ، فى الحكم والآداب ، وتراه يستطيع فى الأوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثله فى سائر المعانى ، وترى الكاتب وهو فى الإخوانيات أبلغ منه فى السلطانيات ، وبالعكس . هذا أمر معروف ظاهر لا يشتبهه .

وإذا كان كذلك ، فلعل العجز الذى ظهر فيهم عن معارضه القرآن لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، ولكن لأنهم لا يستطيعونه فى مثل معانى القرآن .

واعلم أن هذا السؤال يجىء لهم على وجه آخر ، وفى صورة أخرى ، وأنا أستقصيه ، حتى إذا وقع الجواب عنه وقع عن جملته ، وكان الحسم فى الداء كله . وذلك أن يقولوا : إنه لا يصح المطالبة إلا بما يتصور وجوده ، وما يدخل فى حيز الممكن ؛ وإنا لنعلم من حال المعانى أن الشاعر يسبق فى الكثير

منها إلى عبارة يُعلمُ ضرورةً أنها لايجيء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى نقضى له بأنه قد غلب عليه واستبد به ، كما قضى الجاحظ لبشار في قوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّعِيعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

فإنه أنشد هذا البيت مع نظائره ثم قال : وهذا المعنى قد غلب عليه بشار ، كما غلب عنتره على قوله :

وَخَلَا الذَّبَابُ بِهَا ، فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرْدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرْتِمِ
هَزْجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكِيبِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

قال : فلو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنتره في هذا لا فتضح ، وليس ذلك لأن بشاراً وعنتره قد أُوتيا في علم النظم جملة ما لم يوت غيرهما ، ولكن لأنه إذا كان في مكان خبيء فعشر عليه إنسان وأخذه لم يبق لغيره مرام في ذلك المكان ، وإذا لم يكن في الصدفة إلا جوهرة واحدة فعمد إليها عامد فشققها عنها استحال أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أخرى من تلك الصدفة . وما هذا سبيله في الشعر كثير لا يخفى على من مارس هذا الشأن .
فمن البين في ذلك قول القطامي^(١) :

فَهِنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصْبَنَ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي
وقول أبي حازم^(٢) :

كفالك بالشيب ذنباً عند غانية وبالشباب شفيحاً أيها الرجلُ

(١) أورد عبد القاهر هذا البيت في الدلائل في معرض الكلام على متعلقات الفعل وأثرها في معنى الجملة . دلائل الإعجاز ، الطبعة الثانية ص ٤١٣ . وهو من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث (راجع طبقات ابن سلام ٥٣٤ والأغاني ١٢٠/٢٠ .

(٢) هذا البيت ثالث ثلاثة أبيات لأبي حازم الباهلي يوردها أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ونقل عن ابن الأعرابي قوله إنه لا يعرف في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب أحسن منها [ديوان المعاني ٢ / ١٥٢ ط ١٣٥٢ هـ] .

وقول عبد الرحمن بن حسان :

لم تفتها شمس النهار بشيءٍ غير أن الشباب ليس يدومُ

وقول البحتري^(١) :

عريقون في الأفضال يؤتنفُ الندى اناشئهم من حيث يؤتنف العمر

ولا ينظر في هذا وأشباهه عارف إلا علم أنه لا يوجد في المعنى الذي يرى

مثله ، وأن الأمر قد بلغ غايته ، وأن لم يبق للطالب مطالب .

وكذلك السبيل في المنثور من الكلام ، فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً

تعلم أن لن يستطاع في معانيها مثلها ؛ فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » .

وقول الحسن رحمة الله عليه : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك

لا يقين فيه من الموت » . ولن تعدم ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ، ونظرت

في الرسائل . ومن أخص شيء بأن يطلب ذلك فيه الكتب المبتدأة الموضوعة في

العلوم المستخرجة ، فإننا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من

اللفظ . والنظم أعياناً من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيهه له ، فجعلوا

لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويرددوا ألفاظهم

فيها على نظامها وكما هي . وذلك ما كان مثل قول سيبويه في أول الكتاب :

« وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى وما

يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع »^(٢) ، لا نعلم أحداً أتى في معنى

هذا الكلام بما يوازنه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه . ولا يقع في الوهم

(١) الديوان ط هندية سنة ١٩١١ م ١٠/٢ من قصيدة يمدح بها أبا عامر الخضر بن أحمد .

(٢) ونص عبارة سيبويه في أول الكتاب ١ / ٢ : « وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث

الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع » .

أَيْضًا أَنْ ذَلِكَ يَسْتَطَاعُ ، أَفْلا تَرى أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُمْ : وَالْفِعْلُ يَنْقَسِمُ بِأَقْسَامِ الزَّمَانِ ، مَاضٍ وَحَاضِرٍ وَمُسْتَقْبَلٍ . وَليْسَ يَخْتَفِي ضَعْفُ هَذَا فِي جَنْبِهِ وَقُصُورُهُ عَنْهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ : كَأَنَّهُمْ يَقْدُمُونَ الَّذِي بَيَّانَهُ أَهْمُ لَهُمْ وَهُمْ بِشَأْنِهِ أَعْنَى ، وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يَهْمَانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونَ سَبِيلَ لَفْظِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ هَذَا السَّبِيلَ ، وَأَنْ يَكُونَ عَجْزُهُمْ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فِي طَرِيقِ الْعَجْزِ عَمَّا ذَكَرْنَا وَمِثْلُنَا . فَهَذَا جُمْلَةٌ مَا يَجِبُ لَهُمْ فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ التَّعَلُّقِ قَدْ اسْتَوْفَيْتَهُ . وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَهُ فَاسْمِعِ الْجَوَابَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُهُ عَنْكَ دَفْعَةٌ وَيَحْسِمُهُ عَنْكَ حَسْمًا . وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي هَذَا كِرَامٍ قَدْ أَضَلَّ الْهَدْفَ ، وَبَانَ قَدْ زَالَ عَنِ الْقَاعِدَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَوَّالٌ لَا يَتَجَهَّ حَتَّى يَقْدَّرَ أَنْ التَّحْدَى كَانَ إِلَى أَنْ يَعْبُرُوا عَنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَنْفُسَهَا وَبِأَعْيَانِهَا بِالْفِظْ . يَشْبَهُ لَفْظُهُ وَنَظْمُ يُوَازِي نَظْمَهُ ، وَهَذَا تَقْدِيرٌ بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ التَّحْدَى كَانَ إِلَى أَنْ يَجِيئُوا فِي أَى مَعْنَى شَاءُوا مِنَ الْمَعَانِي بِنَظْمٍ يَبْلُغُ نَظْمَ الْقُرْآنِ فِي الشَّرْفِ أَوْ يَقْرُبُ مِنْهُ . يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ مَفْتَرِيَاتٍ ﴾ (١) أَى مِثْلَهُ فِي النَظْمِ ، وَلِيَكُنِ الْمَعْنَى مَفْتَرِيًا لِمَا قَاتَمَ ، فَلَا إِلَى الْمَعْنَى دَعِيْمَةً ، وَلَكِنْ إِلَى النَظْمِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ بَيْنًا أَنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ، وَرَى مِنْ غَيْرِ مَرْمَى ، لِأَنَّهُ قِيَاسٌ مَا امْتَنَعَتْ فِيهِ الْمَعَارِضَةُ مِنْ جِهَةٍ وَفِي شَيْءٍ مَخْصُوصٍ ، عَلَى مَا امْتَنَعَتْ مَعَارِضَتُهُ مِنْ الْجِهَاتِ كُلِّهَا وَفِي الْأَشْيَاءِ أَجْمَعِهَا . فَلَوْ كَانَ إِذَا سَبَقَ الْخَلِيلَ وَسَيَّبِيوِيَهُ فِي مَعَانِي النَّحْوِ إِلَى مَا سَبَقَا إِلَيْهِ مِنَ اللَّفْظِ وَالنَّظْمِ ، لَمْ يَسْبِقِ الْجَاحِظُ فِي مَعَانِيهِ الَّتِي وَضَعَ كَتَبَهُ لَهَا إِلَى مَا يُوَازِي ذَلِكَ وَيُضَاهِيهِ ؛ أَوْ كَانَ بَشَارًا إِذْ سَبَقَ فِي مَعْنَاهُ إِلَى مَا سَبَقَ إِلَيْهِ لَمْ يَوْجَدْ مِثْلَ نَظْمِهِ فِيهِ لِشَاعِرٍ فِي شَيْءٍ مِنْ

(١) [هود / ١١ / ١٣] .

المعاني ، لكان لهم في ذلك متعلق ، فأما وليس من نظم يقال إنه لم يسبق إليه في معنى إلا ويوجد أمثاله أو خير منه في معان أخر فمن أشد المحال وأبينه الاعتراض به . واعلم أنا لو سلمنا لهم الذي ظنوه على بطلانه من أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بما يشبه لفظه ونظمه لم نعدم الحجاج معهم ، وأن يكون لنا عليهم كلام في الذي تعلقوا به ودفع لهم عنه ، إلا أن العلماء آثروا أن يكون الجواب من الوجه الذي ذكرت ، إذا كان وفق ما نص عليه في التنزيل ، وكان فيه سد الباب وحسم الشبه جملة . ومن ضعف الرأي أن تسلك طريقاً يغمض وقد وجدت السنن اللاحب ، وأن تطاول المريض في علاجك ومعك الدواء الذي يشفي من كذب ، وأن ترخي من خناق الخصم وفي قدرتك ألا يملك نفساً ، ولا يستطيع نطقاً . ثم إن أردت أن تكلمهم على تسليم ذلك فالطريق فيه أن يقال لهم على أول كلامهم حيث قالوا : إنا رأينا الرجل يكون في نوع أشعر ، وعلى حوك اللفظ والنظم أقدر منه في غيره : إنه ينبغي أن تعلموا أول شيء أنكم حرفتم كلام الناس في هذا عن موضعه ، فإننا تأملنا الحال في تقديمهم الشاعر في فن من الفنون ، وجدناهم قد فعلوا ذلك على معنى أنه قد خرج في معاني ذلك الفن ما لم يُخرجه غيره ، واتسع لما [لم]^(١) يتسع له من سواه . فإذا قالوا : هو أنسب الناس ، فالمعنى أنه قد فطن في معاني الغزل [وما]^(٢) يدل على شدة الوجد وفرط الحب والهيمن لما لم يفطن له غيره . وكذلك إذا قالوا : أمدح ، وأهجى ، فالمعنى أنه قد اهتدى في معاني الزين والشين وفي التحسين والتهجين إلى ما لم يهتد إليه نظراؤه ، ولو كانوا في

(١) زدنا كلمة لم لأن السياق يقتضيها .

(٢) زدنا كلمة وما لأن السياق يقتضيها .

اللفظ والنظم يذهبون لكان محالاً أن يقولوا : هو أنسب ، لأن ذلك في
 صفة اللفظ والنظم محال . ومن هذا الذي يشك أن لم يكن قول جرير :
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ
 أَمْدَحَ بَيْتَ عِنْدَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ لَفْظِهِ وَنَظْمِهِ ، وَأَنْ ذَلِكَ كَانَ
 مِنْ أَجْلِ مَعْنَاهُ ؟ . هذا مالا معنى لزيادة القول فيه .

فإن قالوا : هم وإن كانوا قد أرادوا المعنى في قولهم : هذا أمدح ، وذلك
 أهجى ، وهذا أنسب ، وذلك أوصف ، فإنه لن تتسع المعاني حتى تتسع الألفاظ ،
 وإن تقع مواقعها المؤثرة حتى يحسن النظم ، وإذا كان كذلك موضعنا
 منه بحاله^(١) ، ثم ليس بمنكر ولا مجهول أن يكون لفظ الشاعر ونظمه
 إذا تعاطى المدح أحسن وأفضل منهما إذا هو هجا أو نسب .

قيل : إنا ندع النزاع في هذا ونسلمه لكم ، فأخبرونا عن معاني القرآن^(٢) ؛
 أهى صنف واحد أم أصناف ؟ فإن قلتم : صنف واحد تجاهلتم ، فقد علمنا
 الحجج والبراهين ، والحكم والآداب ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ،
 والوصف والتشبيه والأمثال ، وذكر الأمم والقرون واقتصاص أحوالهم ، والنبأ عما
 جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام ، وما لا يحصى ولا يعد .

وإن قلتم : هي أصناف كما لا بد منه ، قيل لكم : فقد كان ينبغي
 لشعراء العرب وبلغائها أن يعتمد كل منهم إلى الصنف الذي تنفذ قريحته
 فيه فيعارضه ، وأن يجعلوا الأمر في ذلك قسمة بينهم ، وفي هذا كفاية لمن
 عقل .

(١) هذه العبارة قلقة مضطربة ولعل بها تصحيفاً .

(٢) في الأصل الأقران وأصلحناها تمشياً مع السياق .

وأما قولهم : إنه قد يكون أن يسبق الشاعر في المعنى إلى ضرب من اللفظ. والنظم يعلم أنه لا يجيء في ذلك المعنى أبداً إلى ما هو منقطع. عنه ، فإنه ينبغي أن يقال لهم : قد سلمنا أن الأمر كما قلتم وعلمتم ، أفعلتم شاعراً أو غير شاعر، عمد إلى ما لا يحصى كثرة من المعاني فتأتى له في جميعها لفظ. أو نظم أعيان الناس أن يستطيعوا مثله ، أو يجدوه لمن تقدمه ، أم ذلك شيء يتفق للشاعر من كل مائة بيت يقولها في بيت ؟ ولعل [غير] الشاعر على قياس ذلك ، وإذا كان لا بد من الاعتراف بالثاني من الأمرين وهو أن لا يكون إلا نادراً وفي القليل ، فقد ثبت إعجاز القرآن بنفس ما راموا به دفعه ، من حيث كان النظم الذي لا يقدر على مثله قد جاء منه فيما لا يحصى كثرة من المعاني .

وهكذا القول في الفصول التي ذكروا أنه لم يوجب أمثالها في معانيها لأنها لا تستمر ولا تكثر ، ولكنك تجدها كالفصوص الثمينة والوسائط. النفيسة وأفراد الجواهر تعدُّ كثيراً حتى ترى واحداً . فهذا وشبهه من القول - في دفعهم مع تسليم ما ظنوه من أن التحدى كان إلى أن يعبر عن معاني القرآن أنفسها - ممكن غير متعذر ، إلا أن الأولى أن يلزم الجدد الظاهر ، وأن لا يجابوا إلى ما قالوه من أن التحدى كان إلى أن يؤتى في أنفس معانيه بنظم ولفظ يشابهه ، ويساويه ، ويجزم لهم القول بأنهم تحدوا إلى أن يجيئوا في أي معنى أرادوا مطلقاً غير مقيد ، وموسعاً عليهم غير مضيق ، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك .

ومما يُحيل أن يكون التحدى قد كان إلى ما ذكروه ، ومع الشرط الذي توهموه ، أن العرب قد كانت تعرف المعارضة ما هي وما شرطها ، فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عدل بهم في تحديه لهم إلى ما لا يطالب بمثله ،

لكان ينبغي أن يقولوا : إنك قد ظلمتنا وشرطت في معارضة الذي جئت به
 مالا يشترط ، أو ليس بواجب أن يشترط ، وهو أن يكون النظم الذي
 نعارض به في أنفس معاني هذا الذي تحدثت إلى معارضته ، فدع عنا هذا
 الشرط. ثم اطلب ، فإننا نريك حينئذ مما قاله الأولون وقلناه وما نقوله في
 المستأنف ما يوازي نظم ما جئت به في الشرف والفضل ويضاهيه ، ولا يقصر
 عنه ، وفي هذا كفاية لمن كانت له أذن تعي وقلب يعقل .

قد تم الذي أردته في جواب سؤالهم ، وبان بطلانه بياناً لا يبقى معه
 إن شاء الله شك لناظر ، وإذا هو نصح نفسه وأذكي حسه ، ونظر نظرة
 من يريد الدين ، ويرجو مما عند الله فيما يقول ويعمل وجهه ، تقديس اسمه
 وإليه تعالى نرغب في أن يجعلنا ممن هذه صفته في كل ما ننتحيه وننظر
 فيه ، بفضله ومنه ورحمته ، إنه على ما يشاء قدير .
 الحمد لله حق حمده ، والصلاة على رسوله محمد وآله من بعده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

في الذي يلزم القائلين بالصرفه

اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفه أن يكون الذي ابتداء القول بها ابتداءه على توهم أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه ، دون أن يكون قد أطلق لهم وخيروا في المعاني كلها . ذلك لأن في القول بها على غير هذا الوجه أموراً شنيعة ، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها ، وذلك أنه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها - وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتحدوا إلى معارضة القرآن - قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم ، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر ، وخذلتهم قوى قد كانوا يصلون بها ، وأن تكون أشعار شعراء النبي صلى الله عليه وسلم - التي قالوها في مدحه عليه السلام وفي الرد على المشركين - ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية ، وأن يشك في الذي روى عن شأن حسان من نحو قوله عليه السلام : قل وروح القدس معك . لأنه لا يكون معاناً مؤيداً من عند الله . وهو يعدم مما كان يجده قبل كثيراً ، ويتقاصر أنف حاله عن السالف منها تقاصراً شديداً .

فإن قالوا : إنه نقصان حدث في فصاحتهم من غير أن يشعروا به . قيل لهم : فإن كان الأمر كذلك فلم تقم عليهم حجة ؛ لأنه لا فرق بين أن لا يكونوا قد علموا شيئاً من الفصاحة التي كانوا يعرفونها لأنفسهم قبل التحدى بالقرآن والدعاء إلى معارضته ، وبين أن يكون قد علموا ذلك ثم لم يعلموا أنهم قد علموه ، ذلك لأن الآية بزعمهم إنما كانت في المنع من نظم ولفظ . قد كان لهم ممكناً قبل أن تحدثوا ، ولا يكون منع حتى يُرام المنوع ، ولا يتصور أن يروم الإنسان الشيء ولا يعلمه ، ويقصد في قول له وفعل إلى أن يجيء به على وصف وهو لا يعرف ذلك الوصف ، ولا يتصوره بحال من الأحوال . وإذا جعلناهم لا يعلمون أن كلامهم الذي يتكلمون به اليوم قاصر عن الذي تكلموا به أمس ، وأن قد امتنع عليهم في النظم شيء أكان يواتيهم ، وسلبوا معنى قد كان لهم حاصلًا ، استحال أن يعلموا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يسمع منهم ، وعلى النظم الظاهر الباقى لهم ؛ ذلك لأن عذر القائل بالصرفة أن كلامهم قبل أن تحدثوا قد كان مثل نظم القرآن ، وموازياً له ، وفي مبلغه من الفصاحة .

وإذا كان كذلك لم يتصور أن يعلموا أن للقرآن مزية على كلامهم ، وعندهم أن كلامهم باق على ما كان عليه في القديم ، لم ينتقص ، ولم يدخله خلل وإذا لم يتصور أن يعلموا أن للقرآن مزية على ما يقولونه ويقدرّون عليه في الرتب ، لم يتصور أن يُحاولوا تلك المزية ، وإذا لم يُحاولوها لم يحسوا بالمنع منها والعجز عن نيلها ، وإذا لم يحسوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم حجة به . فالذي يعقل إذن مع هذه الحال أن يعتقدوا أنهم قد عارضوا القرآن وتكلموا بما يوازيه ويجرى مجرى المثل له ، من حيث إنه إذا كان عندهم أن كلامهم باق على ما كان عليه في الأصل ، وقبل نزول القرآن ، وكان كلامهم إذ ذاك في حد المثل والمساوى للقرآن ، فواجب مع هذا الاعتقاد أن يعتقدوا أن في جملة

ما يقولونه في الوقت ويقدرّون عليه ما يشبه القرآن ويوازيه .

واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضوا في العرب من دخول النقص على فصاحتهم ، وتراجع الحال بهم في البيان ، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطراً من بيانه ، وكثيراً مما عرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم . ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلا عليهم : ﴿ قُلْ لئنِ اجْتَمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ (١) في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن ويقدر عليه ، ويتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ ، وعلو النظم . اللهم إلا أن يقتحموا جهالة أخرى فيزعموا أنه عليه السلام قد كان في الأصل دونهم في الفصاحة ، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامهم قبل نزول القرآن في مثل لفظه ونظمه قد كان لبلغاء العرب دون النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا قالوا ذلك كانوا قد خرجوا من قبيح القول إلى مثله ، فلم يشك أحد أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منقوصاً في الفصاحة ، بل الذي أتت به الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب .

ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي ، إن كانت العرب منعت منزلة (٢) من الفصاحة قد كانوا عليها ، أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت . ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك ، ولكانوا قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به ، ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه ؛ فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى ، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذكروه فيما بينهم ، ويشكوه

(٢) عبارة الأصل قلقة وقد عدلناها بما يتفق والسياق

(١) [الإسراء ١٧ / ٨٨] .

البعض إلى البعض ، ويقولوا مالنا قد نقصنا في قرائحنا ، وقد حدث كلول في أذهاننا . فبقي أن لم يُرو ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى ، لا ما قل ولا ما كثر ، دليل أنه قول فاسد ، ورأى ليس من آراء ذوى التحصيل .

هذا وفي سياق آية التحدى ما يدل على فساد هذا القول ؛ وذلك أنه لا يقال عن الشيء يُمنعه الإنسان بعد القدرة عليه ، وبعد أن كان يكثر مثله منه ، إني قد جئتكم بما لا تقدرُونَ على مثله ، ولو احتشدتم له ودعوتكم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه ، وإنما يقال إني أُعطيتُ أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأمنعكم إياه ، وأن أفحمكم عن القول البليغ ، وأعدمكم اللفظ الشريف ، وما شاكل هذا . ونظيره أن يقال للأشداء وذوى الأيد إن الآية أن تعجزوا عن رفع ما كان يسهل عليكم رفعه . وما كان لا يتكأءدكم ، ولا يثقل عليكم^(١) ؛ ثم إنه ليس في العرف ، ولا في المعقول أن يقال : لو تعاضدتم واجتمعتم وجمعتم لم تقدرُوا عليه ، في شيء قد كان الواحد منهم يقدر على مثله ، ويسهل عليه ، ويستقل به ثم يمنعون منه ، وإنما يقال ذلك حيث يراد أن يقال إنكم لم تستطيعوا مثله قط ، ولا تستطيعونه ألبتة ، وعلى وجه من الوجوه ؛ حتى إنكم لو استضفتم إلى قواكم وقدركم التي لكم قوى وقدرًا ، وقد استمددتم من غيركم ، لم تستطيعوه أيضًا ؛ من حيث إنه لا معنى للمعاوضة والمظاهرة^(٢) والمعونة إلا أن تضم قدرتك إلى قدرة صاحبك ، حتى يحصل باجتماع قدرتكما ما لم يكن يحصل . فقد بان إذن أن لاساغ لحمل الآية على ما ذهبوا إليه ، وأن لا محتمل فيها لذلك على وجه من الوجوه . وظهر به وسائر ما تقدم أن القول بالصرفة - ولا سيما على هذا الوجه - قول في غاية البعد والتهافت ، وأنه

(١) هذا في الأصل كلمة غامضة وقد أثبتناها هكذا تمشياً مع السياق .

(٢) في الأصل : المظاهرة .

من جنس ما لا يعذر العاقل في اعتقاده . ولم أقبل - ولا سيما على هذا الوجه - وأنا أعني أن القول بها على الوجه الأول مساعٍ في الصحة ، ولكنني أردت أن فساده كان أظهر والشناعة عليه أكثر ، وإلا فما هما إن أردت البطلان إلا سواء .

فإن قلت : فكيف الكلام عليهم إذا ذهبوا في الصرفة إلى الوجه الآخر فزعموا أن التحدى كان أن يأتوا في أنفس معاني القرآن بمثل نظمه ولفظه وما الذي دل على فساده ؟ ؛ فإن على فساد ذلك أدلة منها قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ (١) . وذاك أنا لا نعلم أن المعنى : فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم ، وإذا كان المعنى على ذلك فبنا أن ننظر في الافتراء إذا وصف به الكلام ، إلى المعنى يرجع أم إلى اللفظ والنظم ؟ . وقد عرفنا أنه لا يرجع إلا إلى المعنى ، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى كان المراد إن كنتم تزعمون أني قد وضعت القرآن وافتريته ، وجئت به من عند نفسي ، ثم زعمت أنه وحى من الله ، فضعوا أنتم أيضاً عشر سور وافتروا معانيها كما زعمتم أني افتريت معاني القرآن . فإذا كان المراد كذلك ، كان تقديرهم أن التحدى كان أن يعمدوا إلى أنفس معاني القرآن ، فيغيروا منها بلفظ . ونظم يشبه نظمه ولفظه ، خروجاً عن نص التنزيل وتحريفاً له .

وذاك أن حق اللفظ إذا كان المعنى ما قالوه أن يقال : إن زعمتم أني افتريته فأتوا أنتم في معاني هذا المفترى بمثل ماترون من اللفظ والنظم . يبين ذلك أنه لو قال رجل شعراً فأحسن في لفظه ونظمه وأبلغ ، وكان له خصم يعانده ، فعلم ذلك الخصم أنه لا يجد عليه مغزاً في النظم واللفظ ، فترك ذلك جانباً وتشاغل عنه وجعل يقول : إني رأيتك سرقت معاني شعرك وانتحلتها وأخذتها من هذا وذاك . فقال له الرجل في جواب هذا الكلام : إن كنت قد

سُرقت معاني شعري فقل أنت شعراً مثله مسروق المعاني . لم يعقل منه ،
 إلا أنه يقول : فقل أنت شعراً في معاني أخر تسرقها كما سرقت معاني
 بزعمك . ولم يحتمل أن يريد : اعمد إلى معاني فقل فيها شعراً مثل شعري ،
 وإنما يعقل ذلك إذا هو قال : إن كنت قد سرقت معاني شعري فقل أنت
 في هذه المعاني المسروقة مثل الذي قلت ، وانظم فيها الكلام مثل نظمي
 لكلامي وحبّره تحبيري .

هذه جملة لا تخفى على من عرف مخارج الكلام ، وعلم حق المعنى من
 اللفظ . وما يُحتمل مما لا يحتمل ، ومنها ما تقدم من أنه لا يقال في
 الشيء قد كان يكثر مثله من الإنسان ثم منع منه : ايت بمثله ، واجهد جهدك
 واستعن عليك ، فإنك لا تستطيعه ولو أعانك الجن والإنس . وإنما يقال
 ذلك في البديع المبتدأ أو الذي لم يسبق إليه ، ولم يوجد مثله قط .

وهذا المعنى وإن كان يلزمهم في الوجهين ، فإنه لهم في هذا الوجه الذي
 نحن فيه ألزم ، وذلك أن^(١) قولك للرجل يقدر على مثل الشيء اليوم في كثير
 من الأحوال والأمور ويعوقه عنه عائق في حال واحدة وأمر واحد : لو اجتمع
 الإنس والجن فأعانوك لم تقدر على مثله ، أبعد وأقبح من قولك ذلك ،
 وقد كان يقدر عليه في سالف الأزمان ثم منعه جملة وجعل لا يستطيعه ألبتة .

ومنها الأخبار التي جاءت عن العرب في تعظيم شأن القرآن ، وفي وصفه
 بما وصفوه به من نحو : إن عليه لطلاوة وإن عليه لحلاوة ، وإن أسفله
 لمعذق وإن أعلاه لمثمر ، وذلك أن محالاً أن يعظموه ، وأن يبتهوا عند سماعه
 ويستكينوا له ، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم

(١) في الأصل : أنك .

يتعذر عليهم لأنهم لا يستطيعون مثله ، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلاً عليه . بل الواجب في مثل هذه الحال أن يقولوا : إن كنا لا يتهياً لنا أن نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه ، إنما نأتيك في غيره من المعاني بما شئت وكيف شئت ، بما لا يقصر عنه ولا يكون دونه .

وجملة الأمر أن علم النبوة عندهم والبرهان إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن لا في نفس النظم . وإذا كان كذلك فينبغي إذا تعجب المتعجب وأكبر المكابر أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى المنع الذي فيه الآية والبرهان لا إلى الممنوع منه . وهذا واضح لا يُشكَلُ .

فإن قالوا : إنه ليكون أن يستحسن الشاعر الشعر يقوله غيره ويكبر شأنه ، ويرى فيه فضلاً ومزية على ما قاله هو من قبل ، ثم هو لا ييأس من أن يقدر على مثله إذا هو جهد نفسه وتعمل له . فنحن نجعل لفظ القرآن ونظمه على هذا السبيل . ونقول : إنهم سمعوا منه ما بهزهم وعظم في نفوسهم ، ولكنهم على حال أنسوا من أنفسهم بأنهم يأتون بمثله إذا هم اجتهدوا ، فحيل بينهم وبين ذلك الاجتهاد ، وأخذوا عن طريقه ومنعوا فضل المنة التي طمعوا معها في أن يجرؤا إلى تلك الغاية ويبلغوا ذلك المدى [الذي] (١) أرادوا ، وإذا كنا نعلم أن الشاعر المفلق ربما اعتاص القول عليه حتى يعيا بقافية ، وحتى تنسد عليه المذاهب ، وأن الخطيب المصقع يرتج عليه حتى لا يجد مقالا ، وحتى لا يفيض بكلمة ، لم يكن الذي قلناه وقدرناه بعيداً أن يكون وأن يسعه الجواز ويحتمله الإمكان ! قيل لهم : إنكم الآن كأنكم

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل .

أردتم أن تحسّنوا أمركم ، وأن تغطوا على بعض العوار ، وأن تتملّسوا من الذى تُلزَمون ، وليس لكم فى ذلك كبير جدوى إذا حقق الأمر ، وإنما هو خداع وضرب من التزويق ؛ وأول ما يدل على بطلان ما قلتم أن الذى عرفنا من حال الناس فيما سبيله ما ذكرتم التضجر والشكوى ، وأن يقولوا : مالنا ، ومن أين دهينا ؟ وكيف الصورة ؟. إنا وإن كنا نسمع قولاً له فضل ومزية على ما قلناه إنه بالذى ليس ينبغى أن يعجز عنه هكذا حتى لانستطيع فى معارضته ما نرضى ، فلا ندرى أسحرنا أم ماذا كان ؟. ففى أن لم يُرو عنهم شىء من الجنس على وجه من الوجوه دليلٌ أن لا أصل لما توهموه ، وأنه تلفيق باطل . ثم إنه ليس فى العادة أن يدعن الرجل لخصمه ، ويستكين له ويلقى بيده ، ويسكت على تقريعه له بالعجز وترديده القول فى ذلك . وقدر ما أظهر من المزية قدر يطمع الإنسان فى مثله ، ويرى أنه يناله إذا هو اجتهد وتعمد ، بل العادة فى مثل هذا أن يدفع العجز عن نفسه ، وأن يجحد الذى عرف لصاحبه من المزية ويتشدد ، كما فعل حسان ، فيدعى فى مساواته وأنه إن كان جرى إلى غاية رأى لنفسه بها تقدماً إنه ليجرى إلى مثلها ، وأن يقول : لا تغلُ ، ولا تفرط ولا تشتط فى دعواك ، فلئن كنت قد نلت بعض السبق إنك لم تبعد المدى بُعد من لا يدانى ولا يشق غباره ، فرويداً واكفف من غلوائك .

واعلم أنهم بتمحلهم هذا قد وقعوا فى أمر يوهى قاعدتهم ، ويقدح فى أصل مقالتهم ، فقد نظروا لأنفسهم من وجه وتركوا النظر لها من آخر . وذلك أن من حق المنع إذا جعل آية وبرهاناً ولاسيما للنبوة أن يكون فى أظهر الأمور ، وأكثرها وجوداً ، وأسهلها على الناس ، وأخلقها بأن تبين لكل راء وسامع أن قد كان منع ، لا أن يكون المنع من خفى لا يعرف إلا بالنظر وإلا يبُعد

الفكر ، ومن شيء لم يوجد قط . ولم يعهد ، وإنما يُظن ظناً أنه يجوز أن يكون ، وأن له مدخلا في الإمكان إذا اجتهد المجتهد . هل سُمع قط . أن نبياً أتى قومه فقال : حجتي عليكم ، والآية في أتى نبي إليكم أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط . ! وليس يظهر في بادى الرأى وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه ، ولكنه موهوم جوازه منكم إذا أنتم كددتم أنفسكم ، وجمعتم مالكم واستفرغتم مجهودكم ، وعاودتم الاجتهاد فيه مرة بعد أخرى ؟ ! أم ذلك مالا يقوله عاقل ولا يقدم عليه إلا مجادف لا يدري ما يقول . !

وإذا كان كذلك ، وكان الذى قالوه من أن المنع كان من نظم لم يوجد منهم قط . ، إلا أنهم أحسوا فى أنفسهم أنهم يستطيعونه إذا هم اجتهدوا واستفرغوا الوسع ، بهذه المنزلة ، ودخلوا فى هذه القضية ، فقد بان أنهم بذلك قد أوهوا قاعدتهم ، وقدحوا فى أصل المقالة من حيث جعلوا الآية والبرهان وعلم الرسالة والأمر المعجز للخلق فى المنع من شيء لم يوجد قط . ، ولم يعلم أنه كان فى حال من الأحوال ، وليس بأكثر من أن ظن ظناً أنه مما يحتمله الجواز ، ويدخل فى الإمكان إذا أدمن الطلب ، وكثر فيه التعب ، واستنزفت قوى الاجتهاد ، وأرسلت له الأفكار فى كل طريق ، وحشدت إليه الخواطر من كل جهة . وكفى بهذا ضعف رأى ، وقلة تحصيل .

فصل

وهذا فصل أختم به .

ينبغى أن يقال لهم : ما هذا الذى أخذتم به أنفسكم ، وما هذا التأويل منكم فى عجز العرب عن معارضة القرآن ؟ وما دعاكم إليه ؟ ،

وما أردتم منه ؟ ، أأن يكون لكم قول يحكى وتكونوا أمة على حدة أم قد أتاكم في هذا الباب علم لم يأت الناس ؟ ، فإن قالوا أتانا فيه علم ، قيل : أفمن نظرت ذلك العلم أم خبر ؟ فإن قالوا : من نظر ، قيل لهم : فكأنكم تعنون أنكم نظرت في نظم القرآن ، ونظم كلام العرب ، ووازنتم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقدر الذى لو خلوا والاجتهاد وإعمال الفكر ، ولم تفرق عنهم خواطرهم عند القصد إليه ، والصمد له ، لآتوا بمثله ؛ فإن قالوا : كذلك نقول ، قيل لهم : فأنتم تدعون الآن أن نظركم فى الفصاحة نظرا لا يغيب عنه شيء من أمرها ، وأنكم قد أحطتم علما بأسرارها وأصبحتم ولكم فيها فهم وعلم لم يكن للناس قبلكم . وإن قالوا : عرفنا ذلك بخبر ، قيل : فهاتوا عرفونا ذلك ، وأننى لهم تعريف ما لم يكن وتثبيت ما لم يوجد ! . ولو كان الناس إذا عن لهم القول نظروا فى مؤداه ، وتبينوا عاقبته ، وتذكروا وصية الحكماء حين نهوا عن الورود حتى يعرف الصدر ، وحذروا أن تجيء أعجاز الأمور بغير ما أوهمت الصدور ، إذا لكفوا البلاء ، ولعدم هذا وأشباهه من فاسد الآراء ، ولكن الذى فى طباع الإنسان من التسرع ، ثم من حسن الظن بنفسه ، والشغف بأن يكون متبوعا فى رأيه ، إلا أن يخدعه وينسيه أنه موسى بذلك ، ومدعو إليه ، ومحذر من سوء المغبة إذا هو تركه وقصر فيه ، وهى الآفة لا يسلم منها ، ومن جنائتها إلا من عصم الله . وإليه عز اسمه الرغبة فى أن يوفق للتي هى أهدى ، ويعصم من كل ما يوتغ^(١) الدين ويثام اليقين . إنه ولى ذلك والقادر عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول من قال : | إنه يجوز أن يقدر الواحد من الناس من بعد انقضاء

زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومُضَى وقت التحدى على أن يأتي بما يشبهه

القرآن ويكون مثله ، إلا أن ذلك لا يخرج عن أن يكون قد كان معجزاً

في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وحين تحدى العرب إليه | قول لا يصح

إلا لمن يجعل القرآن معجزاً في نفسه ، ويذهب فيه إلى الصرفة .

فأما الذى عليه العلماء من أنه معجز في نفسه ، وأنه في نظمه وتأليفه

على وصف لا يهتدى الخلق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على ذلك

الوصف ، فلا يصحّ ألبتة ، ذاك ، لا فرق بين أن يكون الفعل معجزاً في جنسه

كإحياء الموتى ، وبين أن يكون معجزاً لوقوعه على وصف . وإذا كان كذلك

فكما أنه محال أن يكون هاهنا إحياء ميت لا من فعل الله ، كذلك محال

أن يكون هاهنا نظم مثل نظم القرآن لا من فعله تعالى ، فهذا هو .

ثم إنه قول إذا نُقِرَّ عنه انكشف عن أمر منكر ، وهو إخراج أن

يكون وحياً من الله وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد تلقاه عن جبريل

عليه السلام ، والذهاب إلى أن يكون قد كان على سبيل الإلهام ، وكالشيء

يلقى في نفس الإنسان ، ويهدى له من طريق الخاطر والهاجس الذى

يهجس في القلب . وذلك مما يستعاذ بالله منه ، إنه تطرق للإلحاد والله

ولى العصمة والتوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

اعلم أن البلاء والداء العياء أن ليس علم الفصاحة ، وتمييزُ بعض الكلام من بعض بالذى تستطيع أن تفهمه من شئت ، ومتى شئت بأن لست تملك من أمرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته فيرى ، وقلباً إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه ، ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت معه كالنافخ في الفحم من غير نار ، وكالمتمس الشم من أخشم ، وكما لا يقيم الشعر في نفس من لا ذوق له ، وكذلك لا يفهم هذا الباب من لم يؤت الآلة التى بها يفهم إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه قد أوتىها ، وأنه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء ، فجعل يخبط. ويقول القول لو علم عيه لاستحيا منه .

وأما الذى يحس تأليفه فى نفسه ، ويعلم أنه قد عدم علماً قد أوتيه من سواه ، فأنت منه فى راحة ، وهو رجل عاقل ، حماه عقله أن يعدو طوره ، وأن يتكلف ما ليس بأهل له .

وإذا كانت العلوم التى لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس فى العلم بها ، واتفقوا على أن البناء عليها ، والرد إليها إذا أخطأ فيها المخطئ ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه ، وصرفه عن الرأى الذى رأى إلا بعد الجهد ، وإلا بعد أن يكون حصيفاً عاقلان ثابتاً إذا نبه انتبه ، وإذا قيل إن عليك بقية من النظر وقف وأصغى ، وخشى أن يكون قد غر فاحتاط.

بإسماع ما يقال له ، وأنف من أن يلج من غير بينة ، ويستطيل بغير حجة . وكان من هذا وصفه يعز ، ويقل فكيف بأن يرد الناس عن رأيهم في أمر الفصاحة ، وأصلك الذي تردهم إليه ، وتعول في محاجتهم عليه ، استشهاد القرآن ، وسبب النفوس وفليها ، وما يعرض فيها من الأدعية عندما تسمع وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأي ويفتى ، ويقضى إلا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصح ذوقه وتمت أدواته . فإذا ملت لهم : إنكم أتيتم من أنفسكم ومن أنكم لا تفتنون ، ردوا مثله عليك ، وعابوك ووقعوا فيك وقالوا : لا ، بل قرائحنا أصح ، ونظرنا أصدق ، وحسنا أذكى وإنما الآفة فيكم ، فإنكم جئتم فخيتم إلى أنفسكم أموراً لا حاصل لها ، وأوهمكم الهوى والميل أن توجبوا لأحد النظمين المتساويين فضلاً عن الآخر ، من غير أن يكون له ذلك الفضل ، فبقي في أيديهم حيث^(١) لا يملك غير التعجب .

فليس الكلام إذاً بمغن عنك ، ولا القول بِنافع ، ولا الحجة مسموعة حتى تجد من فيه عون لك ، ومن إذاً أبى عليك أبى ذاك طبعه فرده إليك ، وفتح سمعه لك ، ورفع الحجاب بينه وبينك ، وأخذ به إلى حيث أنت ، وصرف ناظره إلى الجهة التي إليها أومأت ، فاستبدل بالنفار أنساً ، وأراك من بعد الإباء قبولا ، وبالله التوفيق .

(١) هذه اللفظة غير ظاهرة في الأصل .